ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد : 07، العدد : 01 (2022) ص : 53 – 62

مشكلة الشر في رواية الحمار الذهبي "للوكيوس أبوليوس" ورواية خواطر حمار "للكونتيسة دي سيجور"

The Problem of Evil in Lucius Apollius's "Golden donkey" and "Thoughts of a Donkey" by Countess de Segur

د. البشير بختي

جامعة المسيلة – الجزائر –

bachir.bakhti@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال :
2021 / 04 / 26
تاريخ القبول :
2021 / 12 / 19

الكلمات المفتاحية :
- ✓ الشر
- ✓ الأدب
- ✓ الفلسفة

الملخص :

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تمثلات الأمير عبد القادر الجزائري في الشعر الشعبي بوصفه إنسانيا مقاوما، كما تعمل الدراسة على تتبع صورة الأمير عبد القادر المقاوم والمتصوف والعالم الشاعر ؛تلك العلاقة القائمة على التأثر بشخصه بصفته ملهما وباعثا للكثير من الشعراء في الفصيح والشعبي،ونحن ندرك جيدا أن هذا الجهد لا يتضح ولا يكتمل إلا بالاقتراب من شخصية الأمير عبد القادر بعيدا عن النموذج التاريخي والأدبي الرسمي/الفصيح/بكل مكوناته وأشكاله وأجناسه التعبيرية ،بل من خلال تتبع أثره في نصوص الشعر الشعبي الجزائري،كما نحاول من خلال تتبع صورة مقاومة الأمير في الشعر الشعبي وتجلياتها عند فحول شعر المقاومة منطلقين من الأسئلة التالية :هل يمكننا الحديث عن شعر شعبي مقاوم؟ وما هي خصوصياته ومميزاته الفنية والموضوعية؟ هل لمقاومة الأمير عبد القادر من أثر على الشعر والشعراء الشعبيين؟وما هي مظاهر التأثير؟وما حدود الفني والتاريخي والواقعي في الشعر الشعبي المتأثر بالأمير عبد القادر ومقاومته ؟وهل لنا أن نؤسس مبحثا تاريخيا في المقاومة الشعبية للأمير من خلال شعر المقاومة سواء ذلك الذي جايله أو ذلكم الذي جاء من بعده؟وما مدى صدى تأثير مقاومة الأمير في أشعار من عاصره ومن جاء بعده؟

Article info

Received
26/04/2021
Accepted
19/12/2021

Keywords:
- ✓ *Evil*
- ✓ *Literature*
- ✓ *Philosophy*

Abstract :

This study examines the issue of emotional language in terms of its effect on political poetry and its function in directing it. We discussed the language of the Iraqi poet Ahmad Matar through his poem, condolence on a congratulatory card, And we tried to limit the most important forms of the poet's emotional language and its expressive patterns drawn from the poem, Because among the important problems that supported us to go into this study was the question about the importance of the emotional function of political discourse.

مقدمة

تعنى دراسة مشكلة الشر، في الحقول المعرفية كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأدب، إلى معرفة الدوافع التي تجعل الإنسان ينزع إلى الشر، وينغمس فيه للوصول إلى رغباته وأطماعه وتسلطه على الآخرين. وتعد مشكلة الشر من القضايا المهمة التي مازالت تشهد نقاشا واسعا إلى يومنا هذا؛ حيث نجد في عصرنا الحديث فلسفات، تحاول الإجابة على أسئلة أثيرت قديما من أمثال: هل يعود الشر ووجوده إلى الإنسان بوصفه المسؤول الوحيد عنه،أم أنه هو نفسه ضحية للشرور الحادث في الوجود؛ أم أن الشر يعود إلى إرادة إلهية وأن ما يصيب المخلوقات من خير أو شر هو من قبله عز وجل؟

ويظهر فعل الشر أكثر ما يظهر في علاقة الإنسان بمظاهر الوجود وخاصة، فيما يتعلق بصلته بالحيوان. ونحاول في هذا البحث أن نتتبع مظاهر الشر، في رواية الحمار الذهبي، "للوكيوس أبوليوس" ورواية خواطر حمار، "للكونتيسة دي سيجور". ودوافع ارتكابه، باعتبار أن الأدب، يقدم صورة قريبة عن الواقع البشري وما يحدث فيه من شرور.

وإذا تصفحنا التراث الأدبي العربي، نجد على عكس الروايتين السابقتين، قصصا مؤثرة، تحكي عن العلاقة الحميمية التي ربطت بين هؤلاء الكتاب ومختلف الحيوانات، حيث نقف على كثير من المواقف الإنسانية التي تنم عن مكانة الحيوان في المجتمع العربي ولأدل على ذلك ما جاء في شعر أبي الفرج الأصفهاني في رثاء ديكه في كتابه الأغاني، وكذلك ما قام به ابن المقفع من تأليفه لقصص جاءت على ألسنة الحيوانات في كتابه كليلة ودمنة. وتأتي هذه النصوص الأدبية ضمن منظومة عربية قيمية دافعت عن الحيوان وحثت على الرفق به ونهت عن كل ما يلحق الضرر به.

كما نجد، أيضا، أن الأدب العربي الحديث، قد وظف الحمار وجعله بطلا للرواية العربية الحديثة، مثل: "حماري قال لي"، لتوفيق الحكيم " و"الحمار الحكيم"، لأحمد رضا. ومن هذا المنطلق تأتي دراستنا، لتبحث في دوافع نزوع الإنسان إلى الشر وهو يتعامل مع الحيوان، وبالأخص، الحمار، ثم كيف يتمظهر الشر داخل المجتمعات البشرية وهي تعامل هذا المخلوق؟ وكيف يتلقاه، خاصة، إذا كان هذا الحيوان ناطقا في الروايتين (من خلال المنظور التخييلي).

1. مفهوم الشر من الديني إلى الإنساني

للوقوف على مفهوم هذا المصطلح، نحاول التعرف عليه من خلال الحقول المعرفية التي تناولته واجتهدت في تحديد مفهومه، وكما جرت العادة نبدأ بالمعاجم اللغوية، فقد جاء تعريفه في لسان العرب على أنه: «السوء وهو ضد الخير» (محمد بن مكرم بن منظور، 2022، ص. 2231). بينما ورد في المعجم الفرنسي على أنه: «كل ما يسبب الألم» (Dictionnaire le Robert, 2000, p. 257) ولا يبتعد مفهوم الشر في المعاجم اللغوية عن المعاجم الفلسفية، فقد ورد الشر في المعجم الفلسفي على أنه: «السوء والفساد وهو ضد الخير لأن الخير يطلق على الوجود أو حصول الشيء على كماله على حين الشر يطلق على العدم وهو أنواع:

الشر الطبيعي، ويطلق على كل نقص، مثل الضعف، والتشويه في الخلقة، والمرض والآلام وما يشبهها.

الشر الأخلاقي، ويطلق على الأفعال المذمومة وعلى مبادئها من الأخلاق وعلى كل ما يحق للإرادة الصالحة أن تقاومه، فالشر الأخلاقي إذن، هو الرذيلة والخطيئة.

الشر الفلسفي (الميتافيزيقي)، ويطلق على نقصان كل شيء كماله، أو على الحابس للكمال عن مستحقيه، وهو إما أن يكون بالذات أو بالعرض. والشر المطلق هو العدم» (جميل صليبا، 1982، ص. 695-696).

وبحسب التعريف الفلسفي السابق، فإن الشر الطبيعي، هو ما يحدث في الطبيعة مثل الزلازل والفيضانات، وهو لا يعد شرا محضا، لأن فيه جانبا خيرا، ثم إنه، من جهة أخرى، لا يفسد الوجود، «وقد أجمعت المعتزلة، أن الله سبحانه خلق عباده لينفعهم، لا ليضرهم» (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري1990، ص. 317).

أما الشر الأخلاقي، فهو الذي يصدر عن البشر من أفعال شريرة، وهو، أيضا، ليس مطلقا وإنما هو عرضي، مثل القوة الغضبية التي تصدر في شكل قوة تدفع الظلم ولكنها تصبح، من جهة أخرى، إذا زادت عن حدها إلى استبداد خاصة لمن هم تحت طائلته. وقد سعى الإنسان منذ نشوئه، إلى أن يحتوي الشر الطبيعي ويحاول تفاديه والتقليل منه بما هيأ الله له من سلطان العقل والمعرفة، ثم إنه شر محدود لا يمكنه أن ينهي الوجود.

ويبقى الشر الأخلاقي من أكثر أنواع الشرور حدوثا في العالم والذي يصدر عن الإنسان، ولذلك يعمل الباحثون على صياغة النظريات والمفاهيم من أجل فهم، ذلك المجهول، كما عبر عنه "ألكسيس كاريل"، ويحاولون معرفة دواخله النفسية وتأثير بيئته الاجتماعية والسياسية والثقافية في سلوكه.

وفي هذا الصدد، فقد تنبه علماء الإسلام القدامى في دراستهم لمشكلة الشر الأخلاقي، أن الإنسان ليس مجبرا على أفعاله وهو يتمتع بقدر كبير من الحرية، ليفعل ما يشاء، وفي هذا المجال، «يُذكر أن ابن قتيبة ومعه جماعة من السلف، تبنوا الدفاع عن حرية الإنسان في وقت مبكر من تاريخ الإسلام وأنكروا أن يكون القدر حاملا لمعنى الجبر» (محمد السيد الجليند، 2006، ص.7)، ذلك لأن صفة الإجبار تنفي وضع الإنسان في اختبار، مادامت أفعاله غير حرة.

وفي هذا الشأن، دافعت المعتزلة على مبدإ حرية الإنسان في اختيار أفعاله، وكان ذلك أثناء الحكم الأموي الذي عُرف بتوظيف مبدأ الجبر لأغراض سياسية، وأنشأ هذا الفهم الجديد حراكا عقليا أدى بالمعتزلة للقول بالقدر، أي بأن الإنسان حر مختار، يفعل ما يشاء، يقول عبد الستار عز الدين الراوي: «وترجع حرية العقل عند المعتزلة، أو لنقل حرية الإنسان في نهاية الأمر، إلى كون العقل مدركا لعين الوجود وجوهره، فإذا كان العقل قادرا على إدراك الحسن، فإنه قادر على إدراك الوجه الآخر في الأفعال وفي الأشياء» (عبد الستار عز الدين الراوي، 1986، ص.5).

وبتقدم العلوم الإنسانية في القرن العشرين، لاحظ علماء الاجتماع أن لتأثير المجتمع والبيئة التي يعيش فيها الإنسان دور في توجيه سلوكه. وهو ما سبق إليه ابن خلدون علماء الغرب، حينما لاحظ أن أهل البدو يتصفون بدماثة أخلاقهم وأن أهل الحضر يتصفون بالترف

والإقبال على الدنيا، "والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف ... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع .. قاموا بالمدافعة عن أنفسهم، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية ... ولأن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه" (عبد الرحمن بن خلدون، 2006، ص. 138-139).

كما وضع ابن خلدون منهجا عقلانيا، وضح من خلاله أن الإنسان بإمكانه أن يسلك سبل الخير وينتهي عن الشر، يقول: «إن الإنسان عليه أن يرجع إلى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه» (المرجع نفسه، ص. 193)، أي أن يعود الإنسان إلى فطرته التي خلقه الله عليها من محبة الخير ونبذ الشر والابتعاد عنه، وتحكيم العقل إن أمكن في حالة أشكل عليه، لأنه لا خلاف بين العقل والنقل كما ذهبت إليه المعتزلة. أما بالنسبة إلى المعرفة الغربية، بخصوص، مشكلة الشر التي تصدر عن الإنسان، فإننا نقف على جملة من التصورات المختلفة، وهي تطرح، أيضا، جملة من المفاهيم الجديدة، خاصة، بعد حلول عصر التنوير الذي أبعد التفسيرات الدينية الغيبية.

في البداية نشأت فلسفات غربية، اعتمدت على مبدإ النظر إلى الحياة على أنها شر فقط، وهي فلسفة تقوم على جانب التشاؤم واعتبار أن هذا العالم يملؤه الشرور. وهي بذلك تفرغ حياة الإنسان من التطلع إلى حياة أفضل، وتسلمه إلى قدره المحتوم وهو التشاؤم واليأس، يقول عبد المنعم الحنفي: «تقوم فلسفة التشاؤم على أساس أن كل ما بالحياة شر، وأن العالم يعتريه النقص، وأن الإنسان نفسه مفطور إما على التشاؤم أو التفاؤل، وأكثر الناس مع التشاؤم، ولا يستشعر التفاؤل إلا الحمقى، والأحمق هو المتفائل الذي لا مبرر لتفاؤله، ومذهب التشاؤم يؤكد على الألم بدعوى أنه طابع الوجود وقانون الحياة، وفلاسفة التشاؤم ينكرون أن هناك عناية إلهية» (عبد المنعم الحفني، 2000، ص. 770-771). وهي فلسفة لا ترى إلا بمنظار السوء وتغليب الشر على الخير.

أما "جان جاك روسو"، فإنه يرى أن الله خلق هذا الكون في أحسن حالاته كاملا غير ناقص وأن الخلل يقع دائما من الإنسان الذي يحاول تشويه الطبيعة وزرع الشر أينما حل، يقول: «كل شيء يصنعه خالق البرايا حسن وكل شيء يفسده بين يدي الإنسان وهو يخرب كل شيء ويشوهه وهو يحب القبح والمسوخ وهو لا يريد شيئا كما صنعته الطبيعة» (جان جاك روسو، تر. عادل زعيتر، ص.27)، فمعظم الشر الموجود في العالم سببه الإنسان الذي يحاول طمس الحقائق وخلق عالم شرير يوافق أهواءه.

بينما نجد "نيكولا مكيافيللي" في كتابه الأمير، ينزع نحو الشر لفرض سلطة الدولة على الآخرين وتمكينها من الاستمرارية، ولذلك ينصح أميره بأن يتبع سبل الشر حتى يتمكن من تثبيت حكمه، يقول: «ولهذا السبب كان الأمير مضطرا إلى أن يعلم جيدا كيف يتصرف كالحيوان، فهو يقلد الثعلب والأسد، لكن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب. على المرء إذن أن يكون ثعلبا ... فعلى الأمير إذن أن ألا يحفظ عهدا يكون الوفاء به ضد مصلحته وألا يستمر في الوفاء بوعد انتهت أسباب الارتباط به وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريرا لكن هذا يصدق فقط في حالة ما إذا كان جميع البشر من الأخيار لكن إذا كانوا من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك، فهذا يسمح لك أن تكون في حل من عهودهم» (مكيافيللي، تر.أكرم مؤمن، 2004، ص. 90)، ويذهب

"مكيافيللي" في التعامل مع الآخر إلى أخطر قاعدة يمكن أن يتبانها سياسي ما في تاريخ هذا الوجود، وهي أنه يبيح استعمال أي وسيلة شريرة، للوصول إلى غرضه، يقول: «الغاية تبرر الوسيلة» (المرجع نفسه، ص. 91).

وفي مدرسة التحليل النفسي نجد "سيجموند فرويد"، يفسر كيف يؤثر اللاوعي في تصرفات البشر وسلوكهم إن كان خيرا أو شرا، يقول علي زيعور: «لقد أبرز فرويد الدور الهام الذي يقوم به اللاوعي في الحياة الإنسانية والذي يتكون في السنوات الأولى من العمر، إنه نتيجة القمع الاجتماعي والأخلاقي للطفل من قبل الآخرين لذلك يبقى اللاوعي طفليا غير منطقي وعاطفي وهو مقاد وموجه من قبل مبدأ اللذة ويوجه الحياة النفسية» (علي زيعور، 1980، ص. 224)، وهكذا تغدو أفعال البشر في التحليل النفسي مجرد مكبوتات أعاقت ظهورها مجموعة من العوائق الاجتماعية والدينية والسياسية لا غير.

أما "بول ريكور"، فإنه يرى بدل أن يهتم فلاسفة العصر الحديث في البحث عن مصدر الشر وسؤالهم من أين يأتي؟ أن يركزوا على السؤال الجوهري وهو ما العمل لمواجهته؟ لأنه يعتقد ببساطة استحالة التأكد إن كان طارئا على الإنسان أو أنه ينبع من ذاته، غير أن الشر موجود وهو ما يؤكده "ويل ديورانت"، يقول: «الحياة شر، وحرب أينما وليت وجهك لا تفتح عينيك إلا على صراع ومنافسة ونزاع وتبادل انتحاري بين الهزيمة والنصر وكل نوع يقاتل بالمادة والأرض والسيطرة» (ويل ديورانت، تر. 1985، ص. 418).

وإذا كان الشر قدر محتوم على الإنسان ولا ينفصل عن كينونته، فإنه يجب مقاومته والتخفيف منه ما أمكن، يقول "بول ريكور": «إن فعل الشر هو فعل إيلام للآخر والعنف لا ينفك يعيد صناعة الوحدة بين الشر المعنوي والتألم وعليه كل فعل أخلاقي أو سياسي، يقلل كمية العنف الممارس بواسطة البشر بعضهم ضد بعض. فلننقص التألم الذي يسببه الناس بعضهم لبعض» (بول ريكور، 2008، ص. 242). ومن المراحل التي يجب أن يخطوها الإنسان في مقاومة الشر والتخفيف منه، أن يعترف بأخطائه، يقول "بول ريكور": «من الشر أن يكون الإنسان حافلا بالأخطاء ولكن من الشر الأكبر أن يكون عنده كل هذه الأخطاء ولا يريد الاعتراف بها» (المرجع نفسه، ص. 42)، وما يجعل الشر، أيضا، ممكنا في الوجود هو الضعف البشري، يقول "بول ريكور": «فالضعف يجعل الشر ممكنا بمعان عدة يمكن تصنيفها في نسق متصاعد من التعقيدات. الإنسان هذا العالم الصغير هو أيضا المفصل الضعيف للواقع» (المرجع نفسه، ص. 210-211).

وبعد بزوغ عصر التنوير وتبشيره بقيم الحداثة الغربية، تمكن الغرب من النهوض الحضاري والازدهار المادي. ثم ما لبثت هذه القيم تنتشر في العالم وبدل أن تحصل الشعوب على الأمان والاستقرار، بدا الشر وكأنه يأخذ أشكالا أكثر تطرفا، حتى أن الكاتبين "زيجمونتباومان" و"ليونيداسدونسكيس" طرحا فكرة الشر السائل، والتي تعد، في نظرهما، من أخطر القضايا وأعقدها على الأمم في العصر الحديث، يقولان: "يمكن النظر إلى الشر بأشكاله الحالية على أنه خاضع لحالة من السيولة، وهي ظواهر جديدة؛ فمن طبيعة السوائل أنها عاجزة عن الاحتفاظ بصورها وأشكالها المتوالية، فالسوائل في صيرورة دائمة، فلا تستقر على حالها، بل تتحول من حال إلى حال" (زيجمونت باومان ،ليونيداس دونسكيس، تر. حجاج أبو جبر، 2018، ص. 19).

فلم يعد الإنسان في وقتنا الحاضر قادرا على تحديد ماهية الشر وطبيعته، والذي أصبح أكثر مراوغة من أي وقت مضى "لأن الشر السائل، ببساطة، أصبح يرتدي ثوب الخير والحب، على العكس مما يمكن أن نسميه "الشر الصلب"، حيث يمكننا بسهولة تحديد ماهيته في واقعنا الاجتماعي والسياسي، كما أن الشر السائل يرتدي عباءة غياب البدائل وامتناعها" (المرجع نفسه، ص. 25). بل إن الشر السائل اليوم يمكن أن يسكن البيوت الآمنة وقد يظهر فجأة وبدون سابق إنذار، كما قد يضرب بعشوائية (المرجع نفسه، ص. 60).

وإذا كانت الشرائع والأديان والحقول المعرفية الأخرى أجمعت على مفهوم واحد للشر وألحت في أغلبها على نبذه، إلا أنها اختلفت في تفسير وجوده، خاصة، بعد أن انتصرت قيم الحداثة الغربية وما أحدثته من شروخ كبيرة في مفهوم الشر الغيبي واعتبرت سلوكات البشر لا تخرج عن تأثير الجانب البيئي والاجتماعي والبيولوجي والنفساني. ولكن في زحمة هذه الأفكار، كيف عالج الأدباء مسألة الشر؟ وكيف ساهم السرد الروائي في التعريف بمشكلة الشر؟ وقد اخترنا رواية الحمار الذهبي من العصر القديم ورواية خواطر حمار من العصر الحديث وسنقدم أهم الشرور الواردة في الروايتين والمرتكبة في حق الحمار على الأقل من وجهة نظر الأدب.

1.1. مظاهر الشر في الروايتين

2.1. أنواع الشرور في رواية الحمار الذهبي "للوكيوس أبوليوس"

تطالعنا رواية الحمار الذهبي في بدايتها بموقف درامي، قام به الكاتب "لوكيوس"، بطل الرواية، حينما حول نفسه، عن طريق الخطإ، من الصفة البشرية إلى الصفة الحيوانية (على شكل حمار). وواضح من خلال ما جاء في الرواية أن هذا التحول لم يكن ليعجب البطل، لأنه كان يرغب في أن يحول نفسه إلى طائر غير أن يكون حمار. إلا أن هذا التحول الذاتي سيسمح للقارئ أن يضع نفسه في مكان البطل وأن يعيش مأساة تحوله إلى حمار كما لو أنها حدثت للقارئ نفسه، وهي وسيلة تخييلية جيدة ليتعرف القارئ على معاناته بدل لو أن الكاتب نقل ما يحدث للحمار من وجهة نظر خارجية. «أدخلت يدي في العلبة، ودهنت بها جسمي، شعري نما وأصبح خشنا، وصارت بشرتي الناعمة طبقة سميكة ... كنت قد تحولت من لوكيوس إلى حمار نقل على أتم ما أكون» (لوكيوس أبوليوس، تر. أبو العيد دودو، 2004، ص. 90-91).

ويبدو من خلال تصفحنا للرواية أن الضرب المادي بأنواعه يعد من أكثر الشرور ورودا، وقد أحصينا العديد من الأمثلة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر هذا الموقف: «وراح في الحين يبحث عن عصا، فوقع مصادفة على رزمة من الحطب انتقى منها هراوة ذات أغصان، كانت أقوى من كل ما عداها، وانهال علي بها ولم يمسك عن ضربي أنا التعس إلى أن تعالت الضجة وكثر الصراخ» (المصدر نفسه، ص. 92). وأحيانا نجد في بعض الأمثلة أن مهاجم الحمار يتفنن في عقابه ويبتكر طرقا أقل ما يقال عنها أنها بشعة وسادية ومريضة، «فتق جلدي وأحدث فيه خرقا بل ثقبا أو قرحة واسعة ولم يتوقف عن ضرب الجرح الذي كان يقطر دما... لقد فكر الوغد في المكر بي على الوجه التالي، أيضا، كان يأخذ حزمة من الأشواك التي تنطوي على السموم ويربطها بخيط معقود ويثبتها في ذيلي بوصفها آلة تعذيب معلقة، فإن أنا مشيت تحركت وترنحت وجرحتني بإبرها القاتلة بشكل مرعب وهكذا كان علي أن أختار بين شرين عندما أحب لأتجنب هجماته الرهيبة، تتأرجح الأشواك وتخزني بشدة أكثر وعندما أتوقف، ترغمني ضرباته على الجري» (المصدر نفسه، ص. 158).

كما نجد في متن الرواية أفعالا شريرة تأتي من قبيل تغليب مصلحة الإنسان على مصلحة الحيوان، دون النظر إلى الوسائل التي يستخدمها الإنسان للوصول إلى غايته كما يقول ميكافيللي: "الغاية تبرر الوسيلة"، حيث يصبح شخصا عديم الرحمة ويمكنه أن يرتكب أسوء الشرور، «يقع الحمار في يد امرأة نفعية بخيلة أتت به إلى الطاحونة وراحت تضربني لأطحن لها ولأسرتها دقيقا بعرق جلدي، تطبخ منه خبزا ولم يكفها تنهكني في إطعام أسرتها وإنما طحنت القمح بدوراني للجيران، أيضا، في مقابل مبلغ من المال وحرمتني أنا الحقير التافه حتى من نصيبي المقرر من الشعير، فقد جففته وطحنته من نفس الطاحونة التي أديرها وباعته بصورة منتظمة للفلاحين المجاورين. أما أنا فكانت تقدم لي النخالة غير مغربلة قذرة وفيها حجارة» (المصدر نفسه، ص. 157). ونجد، في الرواية، أيضا، أنواعا أخرى من الشرور، تعرض لها الحمار كتعذيبه وقتله ثم التنكيل به ورميه، «وقطعوا بالسيف مفاصل ركبتيه وسحبوه جانبا ورموا به وهو لا يزال يلهف في هوة واد سحيق» (المصدر نفسه، ص. 97). وتأتي مجموعة أخرى من الشرور في الرواية، لا تقل سوءا عن بقية الشرور الأخرى وتتمثل في الإهانات المعنوية الجارحة، ونضرب لذلك هذا المثال: «وأنتم لم تنسوا الحكم الذي اتخذتموه بشأن الحمار الذي هو كسول جدا وأكول فوق ذلك» (المصدر نفسه، ص. 146).

وتنهي الرواية أحداثها بذكر أشنع القبائح، حينما لا يتورع الإنسان عن ارتكاب المحرم "الانتهاك الجنسي"، «وكانت هناك بين هذه الجماعة أيضا سيدة نافذة الكلمة غنية. بعد أن دفعت كما دفع الآخرون كذلك. ثمن المشاهدة، اجتذبتها ألاعيبي البهلوانية المختلفة. وانتابها لشدة حماسها رغبة غريبة في وبما أنها لم تكن لها من وسيلة أخرى ترضى بها فضولها الجنوني، فقد طلبت باسيغاي (زوجة مينوس ملك كريته) ثانية الأولى عشقت الثور، وهذا تطلبني أنا الحمار، لمعانقتي بلهفة كبيرة، واتفقت مع حارسي على أن تدفع له مبلغا كبيرا نظير ليلة تقضيها معي وقد وافق على ذلك دون أن يفكر إطلاقا في أية إثارة يمكن أن تنطلق مني، لأنه لم يفكر إلا في تجارته» (المصدر نفسه، ص. 218).

3.1. أنواع الشرور في رواية خواطر حمار "لدي سيجور"

في هذه الرواية تضع الكاتبة دي سيجور الحمار "كديشون" بطلا لروايتها وهو يسرد ما جرى له من أحداث مؤلمة مع البشر، وذلك على شكل مذكرات، ولا تبتعد هذه الرواية عن الرواية السابقة فيما وقع للحمار من مآسي على يد الإنسان إلا اختلافا واحدا وهو أن الرواية ألفت في العصر الحديث 1860م.

ويمكن أن نلاحظ أن معظم أنواع الشرور التي تعرض لها الحمار في الرواية السابقة، قد عادت وظهرت من جديد في رواية خواطر حمار. ويمثل الضرب المادي العمدي نسبة كبيرة فيما تعرض له الحمار من شرور، كهذا الموقف الذي حصل له «فإذا ركبت تناولت العصا، وبدأت تضربه ضربًا متكررًا، وكأنها تحسب الضرب مداعبة ضرورية، ثم تسير ولا تكاد العصا تقف أو تكف في يدها عن الضرب على رقبتي وعلى جنبي وأفخاذي،وكنت أسرع في السير وأحيانًا أجري،ومع كل ذلك فلا تنقطع الفلاحة عن استمرارها في الضرب» (الكونتيسة دي سيجور، تر. حسين الجمل، ص. 16)، ثم إن الحمار كان يتعرض للكره من دون سبب، «فبادرتها أمها وقالت : اسكتي، اسكتي، ولا تحدثيني عن هذا الحيوان الذي أبغضه كثيرًا» (المصدر نفسه، ص. 45).

ولا تنسى الكاتبة بعد ذلك أن تذكرنا، بأنواع الشتائم والاستهزاء والسخرية التي نالها الحمار من البشر، تقول: «فضحك الجميع من هذا القول،وساءني استهزاؤهم بي، وفهمت أنهم على عزم مسابقة بين الحمير، ولكن كيف تحصل وأين تكون؟ هذا الذي كنت أطمع في معرفته، فاستمررت مصغيًا لكلامهم وتظاهرت بأنني لم أفهم شيئًا مما قالوا» (المصدر نفسه، ص. 48).

2. نوازع الشر في الروايتين

نشير في البداية إلى أن الروايتين عرضتا مشكلة الشر بكل قسوتها وعنفها وتفاصيلها المقيتة، ومن العجيب أن يكون الإنسان العاقل هو من يقترف هذه الشرور ويكون الحمار الضعيف ضحية من ضحاياه. كما أن إحدى الروايتين لم تتورع في ذكر بعض تفاصيل الشرور الخادشة للحياء، لأن الأدب في عرف الغربيين ليس لديه ما يخفيه، وبإمكانه أن ينقل المحظور والمحرم وأن يكسر كل قواعد الأخلاق المتعارف عليها، كما رأينا سابقا في ذكر حادثة الانتهاك الجنسي، يقول جورج بتاي: «يمكن للأدب قول كل شيء» (جورج بتاي، تر. حسين عجة، 2018، ص. 23). إلا أن الأدب بنقله لهذه الشرور لا يخرج عن كونه ذي طبيعة تطهيرية إذ يسعى إلى أن يثير الشفقة اتجاه الحمار وما يحدث له من شرور على يد الإنسان.

أما عن ضرب الحمار غير المبرر وتعنيفه وكرهه من غير سبب والاستهزاء والسخرية منه فيمكن أن نفسره، بالجانب الاجتماعي الذي صور الحمار، على أنه حيوان بليد وجاهل وعنيد، إلا أن "لوكيوس" أثبت أن الحمار حيوان عطوف وذكي بعكس ما يشاع عنه وبإمكانه أن يقدم المساعدة لغيره، كما أنه يقوم بواجباته كلما أمكنه ذلك. ويبدو أن "دي سيجور"، حاولت في روايتها أن ترسم صورة أخرى مغايرة لما عهده الناس عن الحمار فهي تعتقد أن الحمار إذا ما عومل برفق «فإنه يكون طيبا أحسن من كل أنواع الحيوان» (الكونتيسة دي سيجور، مرجع سابق، ص. 17).

كما بينت أنه حيوان ذكي وقادر على العودة إلى بيته إذا ما تاه أو ترك في مكان بعيد من محل إقامته، وتجده يقدم يد المساعدة لمن تعرض إلى خطر ما، ورأينا ذلك في الروايتين عندما أنقذ الحمار "لوكيوس" المرأة المحتجزة من العصابة. وأنقذ "كديشون"، كذلك، الفتاة الصغيرة من الحريق الذي شب في بيتها. ثم إن "دي سيجور" أثبتت أن الحمار قادر على التعلم ولذلك جعلت "كديشون" يتقدم إلى مسابقة علمية كانت أمام الناس وفيها قام الحمار بالإجابة عن الكثير من الأسئلة التي طرحت عليه وكان موفقا في معظمها. وهذا يدل على حسن فهمه وحبه للمعرفة، كما أن للحمار حدسا في معرفة المخاطر التي يمكن أن تقع، لذلك تجده لا ينصاع للأوامر حتى يزول الخطر. وبالنسبة للجانب النفسي في تفسير الشر، فقد رأينا بعضا منه يشير إلى أمراض نفسية يمكن أن يصاب بها الإنسان، وإلا كيف نفسر الضرب غير المبرر، والتنكيل بالحمار بعد قتله ثم رميه من مكان سحيق. كما يمكن تفسير الشر الصادر عن الإنسان تجاه الحيوان إلى الحرية التي يجدها الإنسان في تصرفاته لأن الحيوان لا يمكنه أن يرد على نفسه، يقول جورج بتاي: «حينما تتوجه الحرية نحو الشر، تفتح الطريق أمام الأشكال المتطرفة» (جورج بتاي، مرجع سابق، ص. 79).

ورأينا أن معظم الشر الواقع في الروايتين هو من قبيل الشر الأخلاقي وهو ما يقوم به البشر من أفعال سيئة، كما ورد، أيضا، بعض من الشر الطبيعي وهو قليل إذا ما قورن بالشر الأخلاقي، ويتمثل في البرد الذي تعرض له الحمار، ثم قسوة التضاريس الجبلية التي سار فيها

الحمار. ويتمظهر الشر داخل الروايتين بعيدا عن الدين، وإذا كان "لوكيوس" يحتفي بالدين الوثني، ويثني على الآلهة التي يؤمن بها، إلا أننا لا نجد من هذه الآلهة اهتماما بالحيوان والرفق به.

كما أن "دي سيجور" والتي تأتي من مجتمع علماني، أبعد ما تكون عن قيم الدين. ولا نجد في الرواية أثرا للدين المسيحي وهو يدافع عن حقوق الحيوان، بل إننا نلمس في الرواية قيم الحداثة التي تحاول أن تخط فهما جديدا للتعامل مع هذه المخلوقات في هذا الوجود وتصحيح النظرة الاجتماعية الخاطئة للحيوان.

خاتمة

تناولنا في بحثنا مفهوم مشكلة الشر من منظور الأدب والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة وتأثير الحداثة الغربية في هذه المفاهيم، كما توقفنا عند أهم مظاهر الشر في الروايتين وقمنا بتحليلها. وقد خلص البحث إلى النتائج التالية:

كان لتطور المعارف الإنسانية، (كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والأدب) المساهمة في حل مشكلة الشر، وفهم نوازع الإنسان الخفية التي تؤثر في سلوكه. حيث لم تعد مشكلة الشر مسألة غيبية يصعب حلها. كما وجدنا أن معظم الشر الوارد في الروايتين هو من قبيل الشر الأخلاقي وهذا دليل على أن الله عز وجل خلق هذا الوجود وحفظه من الزوال، وأن ما يصدر من البشر من شرور هو أكثر ما يقع من غيره. وإذا كان الأدب يفضح البشر في ممارساتهم العدوانية تجاه الحيوان، إلا أنه لا يقدر على منعهم، لأنه لا يملك سلطة مادية عليهم وإنما يمكن أن يساعد الناس على أن ينظروا إلى الحمار بعين الشفقة والرحمة. وشكلت الحرية عاملا سلبيا في تعزيز الشر تجاه الحيوان، فلم يكن هناك أي رادع يمنع مرتكبيه من التوقف أو تسليط العقاب عليهم. ثم إن الروايتين لم تتطرقا إلى الجانب القانوني في الإساءة للحيوان، لأننا نعلم جميعا أنه مع وجود القانون، فإن الناس لا تتورع عن إلحاق الأذى بغيرها.

قائمة المراجع

1- بول ريكور، الإنسان الخطاء، تر، عدنان يجيب الدين، المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2008.

2- جان جاك روسو: إميل أو التربية، تر، عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة، مصر.

3- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1982.

4- جورج بتاي: الشر والأدب، تر، حسين عجة، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد، العراق، ط1، 2018.

5- أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، مقالات الإسلاميين، ج1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1990.

6- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الفكر، لبنان، ط1، 2006.

7- زيجمونت باومان ،ليونيداس دونسكيس: الشر السائل، تر، حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط1، 2018.

8- عبد الستار عز الدين الراوي: ثورة العقل، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط2، 1986.

9- علي زيعور: مذاهب علم النفس، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1980.

10- الكونتيسة دي سيجور: خواطر حمار، تر، حسين الجمل، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.

11- لوكيوس أبوليوس: الحمار الذهبي، تر، أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2004.
12- محمد السيد الجليند: قضية الخير والشر لدى مفكري الإسلام، دار قباء الحديثة، القاهرة، ط6، 2006.
13- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ط، دس.
14- مكيافيللي: كتاب الأمير، ترجمة، أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، 2004
15- عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000.
16- ويل ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة، فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط5، 1985.
17- Dictionnaire le Robert. (2000). Paris : EDIF.